المجتمع برمّته؟

العزيز الدكتور سماح إدريس، تحية وبعد،

فلستُ في حاجة إلى أن أقول لك إنَّ مجلة الآداب هي المجرَّة الفكريَّة والأدبيَّة التي بقيتْ لنا معافاةً نقيَّةً في هذا العصر، بعد أن تغوغلت الأفكارُ وتَحَربأت الإيديولوجيَّاتُ وتمنهج القمعُ والتزييفُ وتبرَّجت الدعارةُ المكتوبة بآلاف العناوين ـ التي لا أَصْلَ لها من التاريخ أو الأدب أو الفكر أو السياسة أو الدين ـ لتصطاد العقولَ في كل الأرصفة والمنعطفات. وصار بعضُ مَنْ كنّا نعتقده حتى الأمس القريب يقول كلامًا يُشْبه كلامَنا، ويتحمَّل في سبيله السجنَ أو النفيَ أو المضايقةَ مثلَ زملائه في الاتجاه نفسه، يَنْسلخ ـ بعد أن وَصَلَ إلى السلطة كرمزٍ من رموزها أو ديكورٍ من ديكوراتها ـ عن أصدقاء الأمس، ومبادئ الأمس، بل وعن نفسه القديمة أيضًا، ويصبح شيئًا آخر مخيفًا يدمِّر كلَّ شيء جميل كان بيننا وبينه. فهل المشكلةُ في أمثال هذا ـ وما أكثرهم اليومَ ـ فرديَّةٌ؟ وهل هي في سيكولوجيَّة السلطة التي تغيِّر الفردَ من ملاك إلى شيطان، ومن سجين إلى جلاّد؟! إذا كان الأمر على هذا النحو فإنَّ نضال الإنسانيَّة كلّها على مدى التاريخ ليس سوى باطل وقبضِ ريح. أم أنَّ المشكلة هي سوسيولوجيَّة السلطة، حيث تَلْعب الأصولُ الاجتماعيَّةُ من جهة والإيديولوجيَّاتُ من جهة ثانية الدورَ الحاسمَ في التغيير نحو هذا الاتِّجاه أو ذاك؟!

إنَّ مفارقات زمننا العربيّ التعس لَتَدْفَعُ بالمتأمِّل فيها إلى الحيرة والذهول. فالذين كنّا نعتبرهم من «أبناء العائلات،» وأنَّهم أبعدُ الناس عن النضال وعن نزاهة الضمير ونظافة الذمّة ومعاني العدل والتضحية والشرف، هم الأكثر اقترابًا من كل هذه الجوانب. والذين كنّا نَعُدّهم من «أبناء قاع المجتمع» وأصحاب الإيديولوجيَّات الثوريَّة المنافحين عن القيَم السابقة هم الأكثر بُعْدًا عنها والأشدُّ استعدادًا لممارسة الخيانة والغدر والقهر والوشاية والنكوص! فهل قليلٌ من العِلم يُصْلح العقلَ ويضع اليدَ على جذور هذه الظاهرة؟ أم أنَّها طبع من طوابع المجتمع العربيّ نفسه، وسيكولوجيَّةٌ موشومةٌ في وجدانه، تَنْبثق منه، ويَسِمها بميْسمه حسب جودته أو رداءته؟ أَعْتقد أنَّ المشكلة هي في المجتمع برمّته، وفي بنيته العامَّة، لا في الأشخاص. فالشخص في جوهره الوجوديّ ما هو إلاّ علاقة اجتماعيَّة، وليس رمزًا إيديولوجيّاً وقدرةً نضاليَّةً أو عقليَّةً ثيوقراطيَّةً أو أوتوقراطيَّةً أو بيروقراطيَّة. فمؤسَّسات الدولة وأجهزتُها، وتقاليدُ المجتمع وعوائدُه وأنسجتُه الحيَّة وأنماطُه الحضاريَّة وحمولاتُه الثقافيَّة، هي التي تصوغ الشخصَ وتكوِّن أسلوبَه، بل ومضمونَه أيضًا. ولذلك فنحن في حاجة إلى تغيير النص الاجتماعيّ العربيّ كليّاً، وإلى صياغة نصّ اجتماعيّ عربيّ جديد، لا يَنْشرخ أو يَسْقط بتغيير الممثِّلين أو انحرافهم أو خيانتهم، ولا تُفَوْرِسُهُ (= من الفيروس) الثيوقراطيَّةُ الكهنوتيَّةُ التي تمزِّق الوحدة الوطنيَّة، ولا الأوتوقراطيَّةُ المدنيَّةُ والعسكريَّةُ التي تَمْتهن حقوقَ الإنسان.

إنَّه لمن المفجع حقّاً أن يُسْتشهد المناضلُ على يد أصدقائه بالأمس، وأن تَغُوص خناجرُ خيانتهم في جسده. لقد فَتَحْنا أعينَنا على زمنٍ كان الشِّعرُ فيه يوصلنا إلى النضال والذودِ عن القيم السامية في الوجود؛ كما كان النضالُ فيه يُوصِل المناضلين إلى الشعر، فتكون لهم ميزةُ الوجود الخلاّق. وها نحن اليوم نشاهِد ذلك الزمنَ الأعذبَ بمراراته ينهار ويَخْتفي، ويحلّ محلَّه زمنٌ مُسَرْطَنٌ بـ «ثقافة الاستسلام» التي ما تَنْفكّ تحاصر ثقافةَ السلام القادر، وتنوشها بحراب التسميم والتسخيف والتشهير من كل الجهات، حتى لا يحبّها أحدٌ، وحتى تَظْهر وكأنَّها ثقافةٌ ذاتُ لغة خشبيَّة...

أحمد بلحاج آية وارهام

مراكش

حوار وصورة قديمان!

الدكتور سماح إدريس، تحيّة وديّة،

فوجئتُ، وأنا أتصفّح العدد ٦/٥ من مجلّة الآداب، بإعلانٍ عن مقابلة معي. ورغم أنّ إعلانًا كهذا كان من المُفْترض أن يُسعدني، إلاّ أنّه تركني في حيرة من أمري؛ ذلك أنّني لا أذْكر أنّ أحدًا أجرى معي حوارًا خصيصًا لـ الآداب.

فقد أجرى معي صديقُنا الناقد ماجد السامرائي مقابلةً قبل أكثر من سنتين ونَشَرَها في مجلة **عمّان**. كما أجرى معي مراسلُ **القدس** في تونس حكمت الحاج مقابلةً مطوّلةً نُشرتْ قبل أقلّ من عام...

لكنّ حيرتي لم تَدُمْ طويلاً إذ نزل العدد ٨/٧ إلى السوق، على غير العادة، بعد ثلاثة أسابيع فقط من نزول العدد الذي سبقه. فسارعتُ لاقتنائه. وكم كانت دهشتي عظيمةً وأنا أقرأ حوارًا أُجري معي قبل اثنتيْ عشرة سنةً ونُشِرَ في مجلة **الدستور** اللندنيّة المحتجبة بتاريخ ١٩٩٠/٨/٢٠، مرفقًا بصورةٍ لي تعود إلى أيّام دراستي بجامعة بغداد. ومن حسن الحظ أنّني قد أجبتُ كتابيّاً عن أسئلة محمد العايش القوتي ـ الذي لم أكن أعرفه آنذاك.

ولهذا الشخص، وهو حالة... غريبة، كما تبيّن لي فيما بعد من «السوابق» في انتحال إنتاج الغير...، ما صار حديثَ الأوساط الأدبيّة ومثارَ تندّرٍ هاهنا في تونس. وهو ما لم أَكُنْ أعْرفه بحكم غيابي عن البلاد طيلة عشرين عامًا، علمًا أنّ هذا الحوار كان قد أجراه معي عام ١٩٨٩، أثناء زيارتي الأولى، لأنّ عودتي النهائيّة من أوروبا كانت نهايةَ ١٩٩٢ عكسَ ما جاء في المقدّمة.

إنّ نشر مقابلة كهذه دون تحيينها على الأقل (علمًا أنّه أضاف سؤالاً وجوابَه، هو السؤال الثاني وجوابه من آخر مقابلة لي مع **القدس** قبل أقلّ من عام!) يَعْني، ببساطة، إلغاءَ أهم مرحلة في مسيرتي الأدبيّة وأغزرها إنتاجًا وأكثرها صخبًا وإثارةً للجدل.

لقد كان همّ محمد العايش القوتي، بعد افتضاح أمره في وسائل الإعلام المحليّة، هو أن يرى اسمَه، في يوم من الأيام، على صفحات مجلة محترمة كـ الآداب، فاتّخَذَ من اسمي مطيّةً لتحقيق ذلك. وتصرُّفٌ كهذا ما كان ليَصْدر عن إنسانٍ سويّ، وإلاّ لفكّر طويلاً في عاقبة فِعْلته قبل إقدامه عليها...

فرفعًا لكل التباس أرجو نَشْرَ هذا التوضيح... مع التذكير بأنّني كنتُ قد أرسلتُ، قبل مدّة، صورةً شخصيّةً لي إلى إدارة المجلّة لحفظها في الأرشيف، وكان يُمْكن استخدامُها بدلاً من نشر تلك الصورة القديمة التي أثارت فيّ الكثيرَ من المواجع.

هذا، وأغتنم هذه المناسبة لأُبلغك إعجابي بالتطوُّر النوعيّ الذي تحقّقه المجلّة من عدد إلى آخر. فإلى أمام.

مع خالص مودّتي.

محمد الخالدي

تونس

تعليق الآداب

تَأْسف المجلة لِمَاحَدَثَ، ولَمْ يَكُنْ لها أن تتنبّأ به. وعزاؤها أنّ المقابلة صحيحة لا منحولة (وإنْ كانت قديمة)، وأنّ الصورة أيضًا صحيحة (وإنْ قديمة هي الأخرى).